طرائف من العصر المملوكي :

الزجــــل والزجالون

للأستاذ محمود رزق ســليم

أطلق الزجل على الشعر العامي الذي اختلفت قوافيه، وتنوعت أوزانه في القصيدة الواحدة، وأهملت حركات إعرابه، وروعيت فيه العامية بضروب بيانها ومسالك حديثها، وما يغشيها من لحن وتحريف وقلب ودخيل، وأمثال سوقية، إلى غير ذلك

وقد كانت الموشحات الفصيحة بما أتيح لهـا من حرية في الوزن والقافية، مرحلة انتقال بين الشعر الفصيح والعامي: غير أن السبب الأصيل الذي هيأ السبيل لظهور الشعر العامي هو فساد ألسنة العوام وانحرافها في تخاطبها من الفصيحة إلى العامية.

والشعر العامي له أهميته وخطره، وبخاصة بعد أن سلخ من عمره سنين، ونضج في مختلف العصور نضجاً مرموقاً. فإذا جازلنا أن نقول إن الشعر الفصيح يمثل الأمة خير تمثيل، فإنه يمثل خاصتها تمثيلا أدق. أما العامة، ولا سيما بعد فساد لسانها وتأبيه على الفصيحة، فإن الشعر العامي أصبح يمثلها إلى حد بعيد. إذ هو منظوم بلغتها، محكي بأساليبها في تأدية معانيها، يحنو على كثير من تصوراتها وأخيلتها وطرق تفكيرها ومظاهر شعورها. فهو لذلك بحاجة إلى العناية بنتاجه ودراسة هذا النتاج. واعتقادنا أن هذه العناية تفيد الفصحى ولا تضرها، فضلا عما تضفيه على التاريخ والأدب من معونة، تلقي — على الأقل — ضوءاً على مدى تحول العامية بين عصر وعصر.

والقصيدة الزجلية تسمى «حملا» تشبيها لها بحمل الدابة، لانقسام شطورها — غالباً — إلى قسمين. وينقسم الحمل إلى عدة مقطوعات تحتوي كل مقطوعة منها على عدة أبيات، وتسمى المقطوعة «دوراً» أما المقطوعة الافتتاحية فتتألف عادة من بيتين، وتسمى «مذهباً»، ويلتزم شيء من قوافيها — غالباً — في الأبيات الأخيرة من كل دور. وعرفت القصيدة الزجلية أيضاً في مصر باسم «البليقة» وجمعها «بلاليق». وربما كانت تطلق على الموشحات القصيرة.

وتعددت أوزان الزجل وتنوعت قوافيه، حتى قيل في بلاد الأندلس: «إن من لا يعرف ألف وزن ليس بزجال». وقد ذاعت منه أنواع، عرفت في مصر الشام وغيرها. ومنها: الدوبيت، والقومة، وكان وكان، والمواليا. وتعتبر هذه الفنون الثلاثة الأخيرة — عند البعض — مستقلة عن الزجل. ومهما يكن من شيء، فإنها جميعاً تجمعها صفة العامية، ومغايرة الشعر الفصيح.

وقد برز الزجـل — على ما رواه ابن خلدون — في بلاد الأندلس أولا، على عهد الأمويين ملوك قرطبة، وذلك بعد فساد الألسنة وظهور الموشحات، والتحلل من قيود الوزن والقافية. ونفقت سوقه في دول البربر لمكان أمرائها من العجمة، وقرب فهمهم للعامية. واشتهر في إحدى دولهم وهي دولة الملثمين، إمام الزجالين «أبو بكر بن قزمان».

وقد سرت عدوى الزجـل من المغرب إلى بلاد المشرق، ومنها مصر، فلقي بها رواجاً عظيماً، فتعددت أنواعه وأغراضه. وذاع بخاصة في العصر المملوكي وأقبل السلاطين والأمراء والناس على سماعه أو إنشاده؛ وذلك للعجمة أو الاستعجام واستبداد العامية بالألسنة وضعف الثقافة الأدبية بعامة. وبذلك عبد السبيل أمام أهل الزجل، فنشطوا نشاطاً ملحوظاً، واحتفلوا بفنهم، وشاركوا الشعراء في كل ميدان تقريباً، وزاحموهم في أخص أغراضهم الشعرية بل شأوهم في بعضها، وأربوا عليهم، وسجلوا من الحوادث وأبدوا من الشعور ما لم يبده أو يسجله شاعر.

طرق الزجالون إذاً أبواباً شعرية عدة، فنظموا الغزل البديع والخمريات الصافية، والنقد المر اللاذع، ووصفوا مناظر الطبيعة وسجلوا الحوادث العامة، والحروب الناشبة، ومدحوا ورثوا، ووقفوا على أعقاب المدن الزائلة، والأحياء الدارسة، والدول الذاهبة، فدونوا أحداثها وذرفوا الدموع على أحداثها، واستخرجوا درر الحكمة من ثناياها، هذا إلى مجون صريح، وتفكه مليح. إلى غير ذلك.

لا بدع حينذاك أن يحتفي النـاس بهم ويحتفلوا بنظمهم، وأن تتقدم منازلهم عند الرؤساء والعامة. وللعامة إقبال على كل

ما يمس مشاعرها ، ويترجم عن خواطرها ، من الأغانى والأناشيد ونحوها .

وقد رُوى أن النيل فى عام ٩٢٣هـ بلغ حد الوفاء فى فيضانه، قبل شهر مسرى ، على غير عادته منذ زمن طويل ، فكان هذا مثار الاستبشار ، ومبعث الابتهاج والفرح ، فنظم بعضهم أغنية بهذه المناسبة مطلعها :

يا حبيب اهنا وطيب   النيل أوفى فى أبيب
وقد بقينا فى هنا   يا فرحنا

وعكس ذلك وقع فى عام ٧٠٩ هـ ، فقد شح النيل وتمنع عن الوفاء . وكان السلطان الناصر بن قلاوون — وكان به عرج — قد عزل نفسه من السلطنة ، فوثب إليها الأمير « ركن الدين بيبرس الجاشنكير » وكانت العامة تلقبه « بالركين » وكان نائب سلطنته هو الأمير سلار ، وأصله من التتار ، وكان أجرد تغشى فاه بعض شعرات . فشاع بين العامة زجل تفكهوا به عليهما ، وضمنوه عواطفهم نحوها ونحو سلطانهم المعزول ، قالوا :

سلطاننا ركين   ونائبو دقين
يجينا الماء منين
هاتوا لنا الأعرج   يجى الماء يدحرج

وقد غشيت الزجليات لوثات البديع ، ولحقت بها علاقاته ، ما بين توريات لطيفة وتلميحات طريفة ، إلى تضمين وجناس وطباق ونحو ذلك . ونحن هنا نأسف أشد الأسف لعدم معرفتنا الفنية برسم الأزجال المأثورة ، وعدم علمنا بلهجات نطقها ، وهذا من شأنه أن يضع صعوبات جمة فى سبيل فهمنا الحق لكافة معانى الزجلية ، وإدراكنا التام لجميع صورها . وكأنى بابن حجة قد شعر سلفاً بهذه الصعوبات فنوه بها فقال « الزجل فن يتمكن الناظم فيه من المعانى ، لجولانه فى ميادين الأغصان والخرجات ، وهو لا يحسن رسمه فى الكتابة إلا من عرف اصطلاحه . وقد روى زجلا فريداً لعلى بن مقاتل ، يتغزل فى شاب مليح خياط . ومطلعه « نهوى خياط سبحان تبارك من الجمال جلوا » ثم قال معقباً بعد روايته « كأنى بمتأمل نظر فى رسم كتابة هذا الزجل، فأنكره ، لبعده عن رسم الألفاظ المعربة الخالية من اللحن ، ويعذر فى ذلك لأنه ليس له إلمام بمصطلح رسمه . ومن رسمه على غير هذا الطريق لم ينفذ له مرسوم ، فإنه يؤديه إلى خطأ وزنه وإعراب لحنه . ومصنفه أبو بكر بن يحيى بن قزمان الوزير . قال فى خطبته : وقد جردته من الإعراب ، تجريد السيف من القراب . ولم يطلب من الزجل غير عذوبة ألفاظه وغرابة معانيه » .

هذا وقد أورد ابن خلدون فى أحد فصول مقدمته نماذج من الزجل ، كثير منها من نظم زجالى مصر والشام فى العصر المملوكى ولم ينسبه لقائله . ويفهم من حديثه أن الزجال كان يقال له « شاعر » ونقول إنه كان يطلق عليه « القيم » أيضاً . وبهذه المناسبة نذكر أن بعض كبار الشعراء فى العصر المملوكى مثل محيى الدين بن عبد الظاهر ، وابن الوردى ، وابن حجة الحموى ، نظموا أزجالا . وكذلك قرض كثير من الزجالين الشعر . ومما رواه ابن خلدون قول بعضهم فى الشكوى الغزلية وهو من المواليا :

يا من وصالو لأطفال المحبة بح   كم توجع القلب بالهجران أوه أح
أودعت قلبى حوحو والتصبر مح
كل الورى كخ فى عينى وشخصك دح

هذا ، ونذكر أن ابن إياس الحنفى المؤرخ الكبير صاحب كتاب « بدائع الزهور » سجل لنفسه فى كتابه أزجالا عدة ، كل منها بمناسبته . ومنها ما نظمه يصف فيه جور السلطان الغورى حينما أرغم القاضى شهاب الدين أحمد بن يوسف ، على أن يعطيه قطع الرخام المثمن التى تزدان بها قاعة أبيه المسماة « نصف الدنيا » ليجمل بها قاعته البيسرية . فقال ابن إياس مورياً :

سلطاننا الغورى قد جار   والصبر منا قد أعيا
وصار فى ذا الجور عمال   حتى خرب نصف الدنيا

ولزين الدين المجمى مواليا يصف فيها ارتياعه وقت البين ، رواه ابن حجة فى كتابه « كشف اللثام » . قال :

شدوا الحامل فصرت ساعة التحميل
ملهوف لا حمل يمنينى ولا تحميل
والعين قد حلفت يا بدر فى التكميل
لا تكتحل بالكرى إن غبت عنها ميل

وترجم السخاوى فى الضوء لمجذوب يدعى « أحمد حطيبة » توفى بدمياط عام ٨٠٨هـ ، ويبدو أنه كان أديباً عاشقاً ، وقد جن

غيرة . ومن زجله فى المعنى :

مرى فضحته وأنتم سركم قد صنت
فقصدى رضا كم وأنتم تطلبون المنت
ذليت من بعد عزى فى هوا كم هنت
يا ليت فى الخلق لا كنتم ولا أنا كنت

ومن الشعراء الزجالين : صدر الدين بن المرحل ، وهو محمد ابن عمر ، ويعرف فى الشام بابن الوكيل . عاش بين سنتى ٦٦٥ هـ ، ٧١٦ هـ ، وقد توفى فى القاهرة . كان من فقهاء الشافعية ذكياً عجيب الحافظة مجادلا كثير الاطلاع ، شارك فى علوم كثيرة ، واشتغل بالتدريس فى قبة الشافعى والشهد الحسينى وغيرهما . ونظم الشعر الرقيق والموشحات الرائعة والأزجال العامرة . واعتبره ابن إياس شاعر عصره ، وعده من الفحول . وطرق أغراضاً شعرية كثيرة . وقد ترجم له السبكى فى طبقاته ، وابن شاكر فى فواته ، وابن حجر فى الدار ، ولم يرووا شيئاً من زجلياته ، على الرغم من شهرته ، على الرغم من شهرته بالزجل والبلاليق ، فاليك شيئاً من شعره ، قال من خمرية .

لتذهبوا فى ملامى إنهم ذهبوا — فى الخمر لا فضة تبقى ولا ذهب
والمال أجمل وجه فيه تنفقه — وجه جميل وراح فى الدجى لهب
لا تأسفن على مال تمزقه — أيدى سقاة الطلا والخرد العرب

وتغزل فى مليح فقال :

تلك المعاطف أم غصون البان — لعبت ذوائبها على الكثبان
وتضرجت تلك الخدود فوردها — قد شق قلب شقائق النعمان
مايفعل الموت المبرح فى الورى — ما تفعل الأحداق فى الأبدان

ويبدو أن صفى الدين الحلى تأثر بألفاظ هذه الأبيات ، فى قصيدته البارعة التى مطلعها :

خلع الربيع على غصون البان — حللا تواضلها على الكثبان

ومن أشهر زجالى العصر المملوكى قيم الزجل الكبير « خلف النبارى » الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى ، وتوفى فى أوائل التاسع فى عهد السلطنة الثانية للناصر فرج ابن برقوق . وكان حاذقاً فى صناعة الزجل ، أدخل إليها خصوصيات الشعر وسماته فى التصوير والتعبير ، وولج بها أبوابه وفنونه ، فتغزل ووصف ومدح وهنأ ورثى وسجل الحوادث ، إلى غير ذلك . وحسنت صلته ببنى قلاوون وبخاصة الأشرف شعبان ، ثم بالظاهر برقوق ، وهو طويل الباع مديد النفس ، تبلغ زجليته أحياناً ثمانين بيتاً أو تزيد .

وفى مطلع غزلية يقول ، وفيه توريات لطيفة :

جار حبيبى قلت دا الحجاج — حا يجـــور أو يزيد
لو عدل عشت بو مسرور — ويكون الرشـــيد

وعندما اعتلى الأشرف شعبان حفيد الناصر بن قلاوون سلطنة مصر عام ٧١٤ هـ هنأه النبارى بقصيدة زجلية منها :

حب قلبى شعبان موفق رشيد — وجـالو أشرق وما لو حدود
وأبوه الحسن وعمه الحسن — وارث الملك من جدود لجدود

* * *

سل لحظك صـــارم لقتل العـدى — وأنت منصور طول المدى والسنين
زعن السعد بين يديك شاويش — فرح القلب بعد ما كان حزين
ونصب لك كرسى على المملكة — وظهر لك نصره بفتحو المبين
والعصايب من حولك اشتالت — خفقت فى الركوب عليك بنود
فاحكم احكم فى مصرنا سلطان — بجميع الملاح لحسنك جنود

ولما قتل الأشرف المذكور رثاه النبارى رثاء حاراً طويلا بقصيدة لا نبالغ إذا قلنا بليغة . ومن أبياتها قوله فى أحد أدوارها :

ضم الأشرف قبر ليت شعرى — هو لقنديل نور ضياه جامع
أو صدف فيه خالص الجوهر — أو فلك فيه غاب قمر طالع
أو نقول غاب فيه أسد ضارى — أو حفير جواه حسام قاطع
أو كناس فيه أحسن الغزلان — أو حمى فيه أفرس الفرسان
أو جسد فيه روح من الأرواح — أو سواد مقلة وفيه إنسان

ونلاحظ فى زجليات النبارى أن « المذهب » وهو مطلع الزجلية ، ينظمه فى موضوعها ، فليس تقديما ولا عرضا إضافيا ، وهو عادة يجمع خلاصة وجيزة لتفاصيل القصيدة . وقد هنأ برقوقا مرة ، أيام أن كان أتابكيا أى قائدا للجند ، وقبل اعتلائه السلطنة ، بقصيدة وصف فيها انتصاره على عدوه الأمير « بركة » فسجل بذلك موقفهما . وذلك عام ٨٧١ هـ . وفى نفس العام اعتدى عرب البحيرة على مدينة دمنهور فسلبوا ونهبوا ، فهب لهم الأمراء والجند من القاهرة وأخمدوا فيهم وأسروا منهم ، فسجل النبارى هذه الحادثة فى حمل وصفى بديع ، وفصل دقائقها وخوافيها فى نحو ٧٢ بيتا لا تجد لها ضريبا فى بابها بين الشعر

الفصيح ، وأولها :

باسم رب السما ابتـدى   فارج الهم والـــكرب
ويفيـــد للذى حضر   قصـــة الترك والعرب

(راجع الزجليتين فى ابن إياس ج ١ ص ٢٤٧ ، ٢٥٢) .

ومن أئمة الزجل علاء الدين على بن مقاتل الحموى الذى أشرنا إليه فيما سبق ، وهو من أدباء القرن الثامن ولد بحماة عام ٦٧٤ هـ ، وعاصر ابن نباتة والصفى الحلى ، وكان يفد على الملك المؤيد صاحب حماة كما كانا يفدان . وأنشد بحضرته وهما بين يديه غزلية فريدة ثلاثية الأدوار أعجبوا بها أيما إعجاب . جانس فى البيت الأخير من كل دور من أدوارها بين ضربه وعروضه فضلا عن الدقائق الأسلوبية والتصويرية التى راعاها . وهذا دأبه فى غزلياته وقد أثبت ابن حجة فى خزانته الغزلية المذكورة . وفى مطلعها يقول :

قـــلبى يحب تيـــاه   ليس يعشـــق إلا إياه
فاز من وقف وحيـــاه   بوصــــد على محيـــاه
بدر السما لو يطبـــع   من رام وصالو يعطب

* * *

صغير يحـــير فى أمرو   غـزال قهـــر بسمرو
ليث الهـــوى وتمـرو   فاعجب لصغـــر عمرو
ريم ابن عشر وأربــــع   أردى الأسـود وأرعب

واشتهر بفن الزجل فى أخريات العصر ، ومنذ عهد الأشرف قايتباى ، الأديب اللبق البـارع « بدر الدين الزيتونى » وهو أبو النجاء محمد بن محمد الموقى . ولد عام ٨٣١ هـ وتوفى عام ٩٢٤ هـ بعد أن شهد عهد الغورى ، وعاصر مصرعه . وقد سجل فى زجلية رحلة السلطان قايتباى إلى الديار الشامية عام ٨٨٢ هـ ، وذلك على نمط فريد مفصل بدقائق الحوادث ومذهبها :

سلطاننا الأشرف خـــرج فى أربعين
من العساكر حين ســـافر حماه
ومن حاب عدًّا روم الفرات   فاسق الخيول من ماه وربه حماه

وسجل حادث الطاعون الجارف الذى أصاب البلاد عام ٨٩٧ هـ ورثى فى تسجيله أهل مصر رثاء بليغاً مليئاً بالحكمة .

وعلى هذا الغرار رثى قايتباى مشيراً إلى بعض وقائع عصره . وفى عام ٩٢٢ هـ وقعت فاجعة « مرج دابق » المشئومة ، فهزت كيان مصر ، واضطربت بها فقارها ، وفزعت لها من أعماقها . وقد قتل فى هذه الوقعة سلطانها الشهيد الأشرف الغورى ، وتفتحت السبل أمام الغزو العثمانى البغيض . يصور لك بدر الدين الزيتونى هذه الخواطر والخاطر فى زجلية عصماء تبلغ نحو ١٢٠ بيتا يرثى بها دولة الغورى وليس لها ضريب فى الشعر الفصيح . ونلاحظ أن هذا الأديب كان يعنى بذكر اسمه وشىء عن نفسه فى كل زجلية ينظمها .

وعلى نمط منه شب ابنه بدر الدين محمد ، وقد رثى أباه بزجل أغر ، عدد فيه مناقبه ، وذكر محامده .

ومن الزجالين : الشاعر الحسن بن هبة الله الإدفوى ذكره صاحب الطالع السعيد ، وتوفى بقوص عام ٧٢٠ هـ ومنهم شرف الدين بن أسد المصرى ، الخليع الماجن المتوفى عام ٧٣٨ هـ ، وله زجلية ماجنة تفكه فيها بشهر الصيام ونوه به صاحب الفوات .

ومنهم ابراهيم الشاعر الأمى ، وله أزجال بارعة ، وتوفى عام ٨٧١ هـ ويضيق المقام دون ذكر أخبارهم وأشعارهم ، فحسبنا ما روينا ؟

محمود رزق سليم

مدرس الأدب بكلية اللغة العربية

جامعة فاروق الأول

كلية الطب — إعلان

تعلن كليـة الطب بجامعة فاروق الأول عن وجود محلين خاليين لدراسة مقرر دبلوم الأشعة والكهرباء الطبية ، وتبدأ الدراسـة به من السنة الدراسية ١٩٤٩/٤٨ ومدتهـا سنتان دراسيتان يحصل بعدها على دبلوم (D. M. R. E)

ويشترط فى التقـدم الحصول على بكالوريوس الطب والجراحة المصرية أو ما يعادلها وآخر ميعاد لقبول الطلبات ١٥ نوفمبر سنة ١٩٤٨ .

٤٩٤